عمر بن عبد العزيز

الخليفة الصوفى

٣

للاستاذ محمود شلبى

تدخل فاطمة بنت عبد الملك على زوجها أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، فاذا به يجلس مغموما مهموما .

فاطمة : ما بك ياعمر ؟

عمر : كيف لا أحزن وليس هناك من أحد من أهل المشارق والمغارب الا وهو يطالبنى بحقه أن أؤديه اليه ، كتب الى فى ذلك أو لم يكتب ، طلبه منى أو لم يطلبه .

وتتنهد فاطمة فى عمق ثم تقول : أمن أجل هذا تحزن ؟

فيقول عمر :

قد جاء شـــغل شـاغل وعدلت عن طرق السلامة
ذهب الفـــراغ فلا فرا غ الى يوم القيـــــامة

ثم يخرج عمر من منزله الى مسجد دمشق الجامع ، وينهض خطيبا فى الناس : أيها الناس ، من صحبنا فليصحبنا بخمس والا فليفارقنا ، يرفع الينا حاجة من لايستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على مالا نهتدى اليه ، ولا يغتابن عندنا أحدا ، ولا يعرضن فيما لايعنيه .

وكان المسجد يموج كعادته بالعلماء والشعراء ، فما أن سمع الشعراء مقالته حتى انفضوا عنه ، وعلموا ألا مغنم عنده ولا مطمع فى عطائه ، بينما اقترب منه العلماء وفرح به العباد .

وقال عمر مخاطبا أهل العلم والتقوى ممن بقى أمامه : قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بى ، فما عندكم ؟

فقال محمد بن كعب : اجعل الشيخ أبا ، والشاب أخا ، والصغير ولدا ، وبر أباك ، وصل أخاك ، وتعطف على ولدك .

ثم أتبعه رجاء : ارض للناس ما ترضى لنفسك ، وما كرهت ان يؤتى اليك فلا تأته اليهم ، واعلم أنك أول خليفة تموت .

فأتبعه آخر : اجعل الامر واحدا ، وصم فيه عن شهوات الدنيا ، واجعل فطرك فيه الموت .

فقال عمر : لا حول ولا قوة الا بالله

فتأمل خلق عمر بن عبد العزيز ، وكيف كان ينحنى للموعظة الحسنة والكلمة الطيبة .

على أن أروع ما تألقت فيه نفسية عمر بن عبد العزيز بعد أن ولى الخلافة هو هذا الموقف .

حاور عمر زوجته فاطمة وجعل يجادلها فى امر أموالها وجواهرها ومصاغها ، فقالت أنه من مالها الخاص .

فقال عمر : لولا أنك بنت الخليفة وأخت الخليفة ما كان لك اليها من سبيل .

وما زال يحاورها ويداورها ويخيرها بين أن تختاره أو تختار الابقاء على هذه الاموال ، حتى نزلت على رأيه واقتنعت وردت اموالها كلها الى بيت المال .

ولم تقف القصة الرائعة عند ذلك الحد ولكن امتدت الى شىء أعمق من ذلك وأمس بأوطار القلوب .

قال عمر : يافاطمة بنت عبد الملك ، انى قد أصبحت فى شغل شاغل بأمر هذه الخلافة ، وانى وان كنت من قبل أستطيع اداء حقك اليك ، أما الآن فانى فى شغل بالناس عنك ، فان شئت ان تعاشرينى على ذلك فأهلا ، والا تعالى أسرحك سراحا جميلا .

ونادى عمر فى جواريه بعد أن اجتمعن اليه ، وخيرهن بين الدار الآخرة وزينة الدنيا .

بين أن يبقين عنده ولا حق لهن عنده من المتعة وبين أن يسرحهن سراحا جميلا .

وانتحب النسا وولولت الجوارى ، ولكنهن كلهن اخترن البقاء مع عمر ، ولم يشترطن عليه ما كن ينلنه منه من متعة قبل الخلافة

موقف رائع ، وصوفية عالية ، وروح مشرقة اشراقا شديدا .

من من الناس يستطيع ذلك ؟ . من يستطيع أن يعرض عن زوجاته جميعهن من أجل أعباء الخلافة ؟ ..

لا أحد .. الا أن يكون مثل عمر ! .

وبدأ عمر يصلح ما أفسده بنو أمية من قبله .

كانت المنابر حين ولى عمر مأمورة ان تسب عليا رضى الله عنه فى خطبة الجمعة ، فما أن ولى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حتى بعث كتابا الى ولاته فى مشارق الارض ومغاربها ، يأمرهم فيه أن ينتهوا عن ذلك الامر القبيح ، وأن يقولوا بدلا من سباب على رضى الله عنه . **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** »

وامتدحه الشاعر كثير عزة فى ذلك فقال :

ولیت فلم تشتم عليا ولم تخف
بريا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وانما
تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذى قلت بالذى
فعلت فاضحى راضيا كل مسلم

فعقب عمر على مقالة الشاعر : أفلحنا اذا ياكثير عزة . جزاك الله خيرا .

ونظر أمير المؤمنين فرأى أن الامبراطورية الاسلامية فيها ولاة من آثار بنى أمية ليسوا هم الصنف الذى ينبغى أن يكون فى مقام الامامة من الناس .

فواصل اصدار أوامره العليا .

يعزل يزيد بن المهلب عن العراق ويعين مكانه عدى بن أرطأة الفزارى على البصرة ، ويعين على الكوفة عبد الحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب .

يعين على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى .

يعين على مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد .

يعين على المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم .

يعزل عن ولاية مصر عبد الملك بن أبى وداعة ويولى عليها أيوب بن شرحبيل .

يعين للافتاء جعفر بن ربيعة ، ويزيد بن أبى حبيب ، وعبيد الله بن أبى جعفر .

يعين على افريقية وبلاد المغرب اسماعيل بن عبد الملك المخزومى

وتعتبر هذه الحركة حركة ثورية من عمر بن عبد العزيز ، انه يعزل ولا يبالى ويولى ولا يبالى .

ولو كان أحدا غيره خشى على نفسه أن يتكتل عليه المعزولون ويعزلوه هو، ولكن عمر لم يكن حريصا على الخلافة ، من اجل ذلك عزل هؤلاء جميعا ولم يخشى الا الله ، فخافه هؤلاء جميعا وذلوا أمام ربانيته .

وتلك صوفية أخرى لعمر بن عبد العزيز . وقوة شخصية لايستطيعها الا من كان له قلب من نور كنور عمر بن عبد العزيز .

ولم تقف قوة الحق المنطلق فى نفسية عمر بن عبد العزيز عند تلك الآفاق التى لا يستطيعها الا طراز الهواة المهديين من الرجال ، ولكن ذهبت الى أبعد من ذلك .

ان هناك نفرا من بنى أمية قد أثروا ثراء فاحشا مما كان فى أيديهم وايدى آبائهم من السلطة والجبروت

فلا بد من رد هذه الاموال جميعا الى بيت المال .

ولتغضب بنو أمية ، وليفعلوا ما شاءوا ، ان الله معه وحسبه .

وجمع عمر أمراء بنى أمية فى داره، وكان ممن حضر فاطمة بنت مروان عمته وذات الراى النافذ فى بيت الأمويين .

وقال عمر : لا بد من رد ما بيد أمراء بنى أمية الى بيت المال .

وصاح المجتمعون : كيف ولما ؟

قال عمر : لولا ما كان فى يدكم ويد آبائكم من سلطان ما اجتمع لكم كل هذه الاموال . فهى حق لبيت المال .

وقالت فاطمة عمته : ولكن يا عمر ... أحذرك سطوة بنى أمية .

عمر : شىء ليس فى تقديرى .

فاطمة : ان هناك آخرين كثيرين غير بنى أمية عندهم من الاموال ما يفوق أموالنا .

عمر : ينبغى ان نكون قدوة للناس .

فاطمة : وهل فعلت أنت ذلك يا عمر ؟

عمر : تعلمين أن دخلى السنوى كان قبل الخلافة أربعين الف دينار ، وانى تنازلت عنها كلها لبيت المال منذ وليت هذا الامر

فاطمة : أنت تنازلت وغيرك لا يريد ذلك .

عمر : ليس الامر أمر رأى وهوى ، انى آمركم ان تنزلوا عن أموالكم ، وتردوها الى بيت المال ، شئتن أم لم تشاءوا .

وضاقت صدور الحاضرين ، ونظر بعضهم الى بعض .

فقال عمر : والله لو أقمت فيكم خمسين عاما ما أقمت فيكم الا ما أريد من العدل .

(يتبع)

« محمود شلبى »